مقدمة الطبعة الثانية

تعد عملية دراسة الدلالة والمفاهيم من أصعب الدراسات اللغوية؛ لأنها تدرس متغيراً دائم التغير، وهو المعنى الذي يختلف حوله كثير من أبناء اللغة الواحدة، والمفاهيم دائمة التطور، فإذا كان المقصود بالدراسة هم أطفال صغار في بداية اكتسابهم للغة، وعلمهم بمنطقها وخفاياها، فالأمر أصعب، فيحتاج إلي متابعة ومعاينة عن كثب لهؤلاء الأطفال، وتدوين كل ما يصدر عنهم من قول، أو فعل مرتبط أو مقترن بقول، وتحليل ذلك كله في إطار علوم (النفس واللغة والتربية) لمعرفة آليات اكتساب اللغة بمعانيها وما تحمله من مفاهيم.

وقد قمت بهذا العمل منذ أكثر من عشر سنوات، وأحاول أن أعيد طبعه في ضوء مستجدات البحث الحديث فأضيف إليه الجديد، وأعيد عرض المادة العلمية بشكل جديد، وأنقحه حتى يخرج بصورة تنفع الباحثين في هذا المجال.

وإن كنت أظنني أضفت شيئاً إلي هذا المجال، فهو ما قمت بتدوينه من حوارات داخل الفصول بين التلاميذ ومعلماتهم، ومحاولة تحليل ذلك في إطار الدراسة الميدانية مستعيناً بالعلوم السابقة، ولكنني كليّ أمل في أن يتناول هذه الحوارات المتخصصون من بعدي؛ ويدققوا النظر فيها، وأن يصوبوا ما يحتاج إلي تصويب، وأن يضيفوا إليه الجديد من تحليلاتهم ووجهة نظرهم العلمية، فنحن نقطة صغيرة علي طريق طويل، طريق البحث العلمي، وسنسأل يوم الدين ماذا أضفنا للعلم، وماذا وضعنا علي طريقه من رايات، أسأل الله رب العالمين أن أكون بعملي هذا قد قدمت شيئاً إلي الدارسين في ميدان كثر فيه البحث النظري،

وقلت فيه عمليات التنقيب عن الجديد بالغوص في بحره العظيم، وذلك من خلال المعايشة مع أصحاب القضية الأصليين (الأطفال) في فرحهم ولهوهم و دراستهم .

والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل

المؤلف

عطية سليمان أحمد

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

بعد دراسة مراحل اكتساب اللغة عند الطفل، التي قمت فيها بدارسة مجموعة من الأطفال منذ الشهر الثاني لولادتهم حتى العام السادس؛ فكرت بعد ذلك في دراسة اكتساب الدلالة عند تلاميذ الصف الأول الابتدائي، فهي مرحلة انتقالية من حياة المنزل المحدودة لغوياً بالنسبة للطفل إلى حياة المدرسة؛ بما فيها من ثروة لغوية وحياة جديدة لم يعش فيها من قبل، بكل خصائصها وملابستها وما يعانيه فيها يومياً .

لقد كثرت الدراسات والنظريات النفسية والتربوية التي تمت حول أطفال هذه المرحلة، ولكنها في مجملها قامت علي آراء علماء أجلاء من مختلف بلاد العالم؛ كان أشهرهم بياجيه، والعالم الروسي ليفي فيجوتسكي وشترون وغيرهم، أقاموا نظرياتهم ودراساتهم علي أطفال في بيئتهم ومجتمعهم، الذي يختلف عن مجتمعنا وثقافتنا، ومن ثم تختلف اللغة التي يكتسبها الطفل، لذا ظهرت الحاجة إلي دراسة جديدة تخص الطفل المصري؛ كابن لهذه البيئة المصرية بكل خصائصها الثقافية واللغوية التي ستنعكس علي عملية اكتسابه للغة، إنها لغته الأم .

اللغة الأم واكتساب اللغة :

إن لغة الفرد هي لغته الأم التي تحاكي عقله وتلامس قلبه في آن واحد، إنها أداة التفكير والتواصل والتعبير، وهي لغة الثقافة التي يبدأ الطفل بالتعرف إليها، وهو بعد جنين في رحم أمه، حيث يعتاد أصواتها وإيقاعها، ومن ثم يسمعها بعد ولادته من أهله والمحيطين به، علي شكل أغنيات وحكايات تروى علي مسامعه في إطار عاطفي آمن .

وبالتالي يصبح تعلمها قراءة وكتابة أكثر سهولة عندما يخوض غمار التعليم النظامي في المدرسة. إنها الأداة التي تنقل له ثقافته والقيم

التي تحملها، كما أنها اللغة التي يعتمدها المبدعون للتعبير عن إبداعهم الأدبي والعلمي والثقافي [1] .

هذا الأمر يجعلنا ننظر للغة الأم للطفل المصري (اللهجة المصرية) بصورة جديدة كبوتقة تصهر فيها أفكاره ومشاعره الوليدة؛ التي ستصبح بعد ذلك لغته الأدبية والعلمية، بل لغة حياته اليومية، فهي أداته للتعبير عمّا يجيش في نفسه، وينطق به لسان علي سجيته، بل هي سليقته التي لو حاول الخروج عليها لفشل، ولذا يجب أن ندرس نمو لغته في إطار لغته الأم (اللهجة المصرية المعاصرة) .

لقد قمت قبل ذلك بدراسة النمو اللغوي لدى الطفل المصري من عمر شهرين إلي ست سنوات، كان الهدف منها وصف تلك اللغة المصرية، وكيفية نموها علي ألسنة أطفالنا، وها أنا ذا أشرع في دراسة اللغة المصرية علي ألسنة هؤلاء الأطفال، ولكن في مرحلة جديدة وهي مرحلة ذهابهم إلي المدرسة، وما يحدث فيها من تحول في كل كيان ووجدان هؤلاء الأطفال، فقد تحولوا اليوم إلي تلاميذ يذهبون إلي عالم لم يعيشوا فيه من قبل، ويلتقون مع رفاق جدد .

مرحلة التكوين اللغوي :

لما كانت السنوات الأولى من حياة الطفل هي السنوات الحساسة، حيث يتم إتقان اللغة الأولية وتكوين الهوية، فقد نبه التربويون بدءاً من أفلاطون، وحتى أعمدة التربية الحديثة إلي ضرورة الاهتمام ببيئة الطفل في سنواته الخمس الأولى، وذلك لسرعة تأثره بمن حوله في هذه الأعوام، وبراعته في ترديد ما يسمعه من الألفاظ والعبارات، وتقليد ما يراه من حركات وإيماءات .

وعندما يلتحق الطفل في الحضانة أو الروضة أو المدرسة يكون قد تعلم أن يتواصل بشكل أفضل؛ وبالتالي أن يفهم الخبرات التي خاضها

---

(1) اللغة الأم من منظور تربوي، د. نجلاء نصير بشور، مركز دراسات الوحدة العربية، عدد٤٨، ص ٧ .

في البيت والمحيط من خلال لغته الأم، ولما كان الانتقال إلي المؤسسة بحد ذاته تجربة قاسية من الناحية العاطفية بالنسبة إلي الطفل، حيث يبتعد ولو لساعات عن المحيط الآمن في البيت يصبح من الصعب علي الأطفال قبول ضغط جديد عليهم يتمثل باستعمالهم لغة أخرى غير اللغة الأم التي اعتادوها، وتمكنوا من التواصل من خلالها وارتاحوا معها ومع كل ما يحيط بها من ثقافة. ففي المؤسسة التربوية يتعلم الطفل عندما يبني علي ما اكتسبه وتعلمه في البيت ومنها اللغة؛ مما يجعل ما يتعلمه الطفل ذا معنى)[1].

هذه المرحلة التي تسبق الذهاب إلي المدرسة هي بحق التي تصنع الشخصية الجديدة، فذهاب الطفل إلي المدرسة أو الحضانة هو إعادة فطام للطفل من جديد، وما يصاحبها من آثار نفسية عليه، فيمر بالعديد من التغيرات علي مستوى البيئة واللغة والمجتمع والسلوك الجديد الذي سيكتسبه ضمن حياته الجديدة بالمدرسة، فيحدث التحول للطفل في هذه المرحلة علي عدة محاور هي :

محاور التحول في هذه المرحلة :

١- **تحول عقلي:** حيث يحدث نمو إدراك، وفهم هؤلاء التلاميذ لكثير من الحوادث التي تحدث حولهم، ويحاولون الاشتراك فيها .

٢- **تحول جسدي:** حيث يمكنهم النمو الجسدي من الاحتكاك برفاق أكبر؛ مما يكسبهم لغةً وفكراً أكبر مما سبق في داخل المدرسة وخارجها .

٣- **تحول في البيئة:** حيث يتحول التلميذ من مجتمع المنزل إلى مجتمع المدرسة، وتعد هذه العملية عملية فطام جديد حيث ينتقل التلميذ من بيئة لغوية صغيرة (الأسرة) إلى بيئة لغوية أكبر (المدرسة)، يعاني في بدايتها ما كان يعانيه عند الفطام عن ثدي أمه من آلام نفسية وبدنية

---

(١) اللغة الأم من منظور تربوي: ١٥ .

حتى يألف ذلك العالم الجديد (المدرسة) بنظامه الجديد من الالتزام بمواعيد الحضور للمدرسة ومواعيد الخروج والانضباط داخل الفصل، وبداية التحكم في نظام السلوك داخل الفصل والمدرسة، الذي يأخذ فترة كبيرة حتى يلتزم به ويعتاده .

٤- **التحول في اللغة:** بما يحدث من اتساع ونضج في كل جوانبها :

أ- المفردات: حيث تزيد حصيلة الطفل اللغوية بشكل كبير من خلال مصادر جديدة مثل :

١- كتاب المدرسة: الذي يحاول من خلال الدروس المختلفة إضافة مفردات جديدة للطفل .

٢- مجتمع المدرسة: ويكسبه مفردات جديدة مثل (الطابور – تحية العلم – الناظر – الأبلة – الفصل....) .

ب- جانب الجمل: حيث يحدث تحول لها من جمل بعضها صحيح، وبعضها خطأ، وهي في مجملها تأخذ شكل اللهجة العامية الخاصة ببيئة التلميذ اللغوية التي أتى منها، لتتحول إلي ناحية الجملة التي تشيع في مجتمع المدرسة التي تقترب من الفصحى .

ج - جانبي الأصوات والأبنية: ويحدث لهما تحول كبير قد لا يلاحظه الكبار؛ ولكنه موجود، حيث تصحح الأصوات التي كانوا يخطئون في نطقها؛ ربما نتيجة لكسل اللسان الذي يبدأ في النطق بها تحت ضغط المجتمع الجديد، وما فيه من سخرية من مثل هذه الأخطاء، وكذلك البناء الصرفي الذي تتسع دائرة قياسه، ومحيط مفرداته بشكل يومي نتيجة لاحتكاكه في مجتمع أكبر وأكثر فاعلية .

الهدف والغاية: إن الهدف من هذه الدراسة بيان كيفية نمو الدلالة وتكوين المفاهيم لدى تلاميذ الصف الأول الابتدائي في المدارس المصرية، ليس من خلال النظريات والآراء اللغوية والنفسية فحسب، ولكن من خلال الجمع بينهما في إطار الدراسة التطبيقية الميدانية،

فمعرفة كيف يفهم الطفل معنى الكلمة، وكيف يكوّن مفهوما حول الأشياء التي يتعرف عليها في عالمه الجديد قضية يجب دراستها، وقد قام ليف فيجو تسكي بدراسة العلاقة بين اللغة والفكر في إطار النظرية الثقافية التاريخية على أن موضوع دراسته ليس هو اللغة في علاقتها بالفكر كما نعرفها عند اللسانيين في معالجتهم لهذا الموضوع، وإنما موضوعه هو دراسة لغة الطفل، وكيف ينشأ تفكيره في اتصاله بالكلام الداخلي ثم تحوله إلي لغة الراشد...

لقد كان الفلاسفة يعتقدون أن التعميم... إنما ينسب إلي الراشدين، في حين يفاجئنا فيجوتسكي بأن اللفظ ليس خاصية للأشياء، وإنما هو علاقة أو رمز يشير إلي الإحالة المرجعية، والانتقال من الإشارة إلي الدلالة. وتقضي الإحالة بالضرورة فكرة التعميم، وتلك قدرة الطفل في مرحلة التمدرس الأولى، وفي تناوله للألفاظ والمفاهيم العلمية، في أن يصبح واعيا بمسألة التعميم .

والمفارقة هي أننا لم نعتد أن نتحدث عن الوعي عند الطفل في هذه المرحلة من التمدرس، لكن فيجوفيسكي في آخر فصل من كتابه اللغة والفكر يكشف لنا عن أن منهاجه المادي التاريخي يعتمد السيمانطيقا، ولذلك يكون إدخال مصطلح الوعي الذي يعمم مبررا باعتبار أن تاريخ الطفل، وبالتالي وعيه جزء من تاريخ الإنسانية "[1] .

هذا ممّا كتبه عبد القادر قنيني في مقدمة ترجمته لكتاب ليف فيجوتسكي (الفكر واللغة)، لقد ذكر كثيراً من خصائص تفكير ووعي الطفل في مرحلة التمدرس الأولى، وقام باختبار نظريته علي أطفال من بيئته، وأتى بنتائج مبهرة في هذا العمل، ولكننا في عالمنا العربي نفتقد مثل هذا التطبيق والاختبار علي أبنائنا في تلك المرحلة شديدة الأهمية بالنسبة لما سندرسه من مقرراتنا الدراسية المقدمة

(١) التفكير واللغة النظرية الثقافية التاريخية، ليف فيجوتسكي، ترجمة عبد القادر قنيني أفريقيا الشرق – المغرب، ٢٠١٣م، ص٧ .

لأبنائنا ، فأصبح من الضروري القيام بعمل مشابه علي مستوي البيئة العربية وأطفالها ، دراسة تتعايش مع هؤلاء الأطفال كما كان يفعل فيجوتسكي وبياجيه من قبله ، وهذا العمل يحتاج منا إلي فريق عمل يضم علماء نفس في هذا المجال إلى جانب علماء لغة متخصصين ، وأساتذة في الطب لتحديد مدى صحة أطفال هذه العينة ، ولم يكن هذا العمل الذي أشرع فيه الأول في هذا المجال ، بل قام به كثيرون من علماء النفس في تحليلهم لهذه الظاهرة ، فهو من أهم مجالات التي توضح العلاقة بين علم النفس وعلم اللغة (مجال اكتساب اللغة) ، وكذلك هناك دراسات كثيرة من قبل علماء التربية في تخصص طرق تدريس اللغة العربية ، ولكن تبقي جهود علماء اللغة خالية من عمل ميداني يجمع جهود علماء النفس وعلماء التربية وعلماء اللغة ، ولهذا تعد تلك الدراسة محاولة لسد هذا الثغر؛ بتقديم عمل جديد في هذا الميدان ، لم أتناول فيه كل الجوانب اللغوية ، بل تناولت جانب الدلالة فقط لمعرفة مدى التحول الذي يحدث فيه ، وكان التركيز الأكبر حول دلالة الألفاظ وتكوين المفاهيم العلمية وغير العلمية؛ لأن هذا الجانب الأكثر بروزاً في هذه المرحلة ، وقد قمت بذلك من خلال هذه الدراسة الميدانية لتلاميذ مدارس السويس الابتدائية ، حاولت فيها التعايش مع هؤلاء التلاميذ بصورة شبه يومية ، واخترت تلاميذ الصف الأول الابتدائي ؛لأنهم حديثو عهد بالمدرسة ، فقد جاءوا من البيت بثقافتهم وعاداتهم ولغتهم الأم التي لم يتحرروا منها بعد .

والله أسأل أن يكلل هذا العمل بالنجاح والتوفيق ، ، ،

د. عطية سليمان أحمد

كلية التربية بالسويس

٢٠٠٣م

تمهيد :

ضرورة الدراسة وأهميتها :

هذا التحول - الذي أشرت إليه آنفاً – يحدث انقلاباً كبيراً في حياة الطفل، حيث يتحول معه هذا الإنسان من مجرد طفل صغير إلى شاب له فكر ورأي خاص ينمو مع الأيام ليصبح فكراً مستقبلاً .

لهذا كانت هذه المرحلة الانتقالية جديرة بالدراسة، حيث تبدأ معها خطوط فكر جديد لا يمثل فكر أقرانه فحسب، بل فكر جيل جديد ولغة جيل جديد .

ولما كان هذا التلميذ لا يذهب إلى المدرسة إلا بعد اكتمال لغته؛ فهو يذهب إلى المدرسة وقد أتقن آلة الكلام، بل إنه يستعمل اللغة استعمالاً تلقائياً دونما جهد يشي بعمليات قياس سابق على لاحق [1]، وكذلك مفرداته، حيث يذهب إلى المدرسة؛ وهو غني بقاموسه الذي يستطيع فهمه؛ وقاموسه الذي يستطيع أن يستخدمه في الحديث؛ وأن دينك يكونان أساساً صالحاً يبني عليه المعلم في تعليم الطفل القراءة والكتابة[2]، فإن مرحلة ما قبل المدرسة هي مرحلة تكوين اللغة واكتمالها، أما المرحلة التالية لها؛ وهي مرحلة الذهاب إلى المدرسة وما يليها من مراحل عمرية مختلفة؛ كلها مراحل لتكوين الدلالة، حيث يظل طوال حياته بعد ذلك في اكتساب الدلالات المختلفة، فيبدأ الطفل في التفاعل مع مجتمع أكبر؛ بلغة بسيطة جديدة تظل تنمو وتتطور بصورة سريعة وإيجابية شديدة مع الأيام، حتى إننا ننظر إلى نفس التلميذ بعد شهرين من الدراسة في عامه الأول وكأنه طفل جديد لغة وفكراً .

---

(١) لغة الطفل: دحسام البهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٩٩٤م، ص٩٢، وانظر: الألسنية (علم اللغة الحديث المبادئ والاعلام)، د. مشيال زكريا، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٣٣ .

(٢) أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الدينية: د. فتحي علي يونس مع آخرين، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٠م، ص٥٢ .

لذا كان لابد من دراسة تلك المرحلة التي يحدث فيها التحول اللغوي في الجانب الدلالي من اللغة؛ لأنه – كما قلت آنفاً – الجانب الذي يظل ينمو مع التلميذ في مراحل عمره المختلفة، وكما يقول د. إبراهيم أنيس: " فليس الأمر كما يتصور بعض الدارسين من أن الطفل يسيطر على دلالة الألفاظ في غير عنت أو مشقة، بل الصحيح أنه يصادف في هذا صعوبات كثيرة تلازمه زمناً طويلاً، فقد يسيطر على الأصوات وتراكيب الجمل وأحرف النفي والإثبات والتوكيد وغير ذلك من المظاهر الصوتية أو النحوية قبل التحاقه بإحدى المدارس، ولكن الطفل فيما يتعلق بالدلالات يظل يتعثر فيها طوال حياته، ويختلف فهمه لها مرحلة بعد أخرى، فهي تضيق حيناً وتتسع حيناً آخر، وتتجدد وتتنوع مع الزمن ؛ فلا يكاد يسيطر على بعضها بعد سن معينة حتى يصادفه سيل جارف منها يستأنف الصراع معها[1] ".

ولكن لا يعني هذا عدم النمو في باقي الجوانب اللغوية الأخرى، بل إن هذه الجوانب تسير في اتجاه الاكتمال لمن لم تكتمل عنده قبل الذهاب إلى المدرسة خصوصاً الأطفال الذين جاءوا من المنزل إلي المدرسة مباشرة دون المرور بمرحلة رياض الأطفال، وكذلك فإن كثيراً من جوانب اللغة التي تبدو لغير المتخصصين قد اكتملت تحتاج إلى فترة زمنية أخرى لتكتمل .

كيفية الدراسة والتحليل :

إن هذا العمل " دراسة الدلالة عند تلاميذ الصف الأول الابتدائي " يحتاج إلى متابعة شبه يومية لتلاميذ هذه المرحلة في الفصول الدراسية، ومن خلال التسجيل الصوتي لهم أثناء الحصة، وتفاعلهم مع المعلمة، وما يدور بينهم من حوارات، حرصت خلال ذلك على تنوع في الفصول والمدارس والمعلمات والتلاميذ ليتضح من خلال تلك التنوعات الفروق

(١) دلالة الألفاظ: د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م، ص٩٦ .

الفردية بين التلاميذ والقدرات المتفاوتة بين المعلمات على توصيل المعنى وتكوين المفاهيم لدى التلاميذ .

وكنت في سبيل ذلك الهدف وهو ملاحظة اكتساب التلاميذ الدلالات الجديدة للألفاظ أقوم بمحاورة التلاميذ أحياناً ، والتأكد من المعاني التي في أذهانهم عن تلك الألفاظ، وكذلك متابعة نمو المعنى عندهم من خلال التسجيل لهم في مراحل متفاوتة لدى هذا التلميذ نفسه .

ويتم هذا العمل على مراحل :

١- القيام بالتسجيل في الحصص الدراسية لدرس محدد في فصول مختلفة ، مع معلمات متنوعات أثناء تدريسهن هذا الدرس نفسه .

٢- تفريغ تلك التسجيلات وتدوين ما فيها من حوارات أساسية وثانوية.

٣- تدوين الملاحظات حول كل حوار في كل حصة واستخلاص النتائج .

٤- ملاحظة الفروق الفردية بين التلاميذ في إدراك المعاني المختلفة ، وكذلك ملاحظة اختلاف المعلمات في قدراتهن على تكوين المفاهيم لدى التلاميذ.

٥- تحليل تلك الملاحظات والنتائج للوصول إلي التوصيات اللازمة.